

مختصر تاريخ تدوين القرآن الكريم وتطور رسمه وقرآته

مقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن للعالمين هدئ ونوراً، وتكفل بحفظه في قوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. إن قصة تدوين القرآن الكريم هي أضخم توثيق عرفه التاريخ البشري، حيث انتقل الوحي من "الصدر" إلى "السطور" عبر مراحل دقيقة جمعت بين الحفظ الإلهي والجهد البشري المخلص.

المبحث الأول: العهد النبوي (النزول والتدوين الأولي)

منهج النزول والمدارسة

نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ مفرقاً (على مدار 23 عاماً، وكان هذا التفرق لحكم عظيمة منها تثبتت فؤاد النبي والرد على وقائع الأحداث. كان النبي ﷺ يراجع القرآن كاملاً مع جبريل عليه السلام في كل رمضان، وفي العام الذي قبض فيه راجعه مرتين، وهو ما يُعرف بـ "العرضة الأخيرة".

كُتَاب الوحي وأدواتهم

لم يكتب النبي ﷺ بحفظه في الصدر، بل اتخذ "كُتَاباً للوحي" بلغ عددهم نحو 43 كاتباً، منهم: علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت، أبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان.

- الأدوات: كتبوا على ما توفر في بيئتهم مثل: اللخاف (حجارة بيضاء رقيقة)، العُسْب (جريد النخل)، الرقاع (قطع الجلد)، والأكتاف (عظام كتف الإبل).
- الحالة عند الوفاة: توفي النبي ﷺ والقرآن كله مكتوب، لكنه لم يكن مجموعاً في مصحف واحد بين دفتين، بل كان مفرقاً عند الصحابة، والسبب هو احتمال نزول آيات جديدة أو نسخ آيات سابقة طالما أن الوحي مستمر.

المبحث الثاني: عصر الصديق (الجمع الأول والدافع المأساوي)

معركة اليمامة والشرارة الأولى

بعد وفاة النبي ﷺ، وقعت حروب الردة، وفي "معركة اليمامة" ضد مسيلمة الكذاب، استحرّ القتل في حفاظ القرآن فاستشهد منهم نحو 70 قارئاً. فرغ عمر بن الخطاب وخشي على ضياع القرآن بذهاب حملته، فذهب لأبي بكر الصديق وألح عليه بجمعه.

تردد أبي بكر وبراعة زيد بن ثابت

تردد أبو بكر هيباً من فعل شيء لم يفعله النبي ﷺ، حتى شرح الله صدره. فكلف الشاب زيد بن ثابت وقال له كلمته الشهيرة: "إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله."

وضع زيد أدق نظام توثيقي في التاريخ؛ فلم يقبل آية إلا إذا كانت:

1. محفوظة في صدور الرجال.
 2. مكتوبة بين يدي النبي ﷺ (شرط الوجود المادي).
 3. يشهد شاهدان عدلان على أن هذه الآية كُتبت فعلاً في حضرة النبي.
- و قد جُمع القرآن في "صحف" مرتبة الآيات، وبقيت عند أبي بكر، ثم انتقلت لعمر، ثم إلى السيدة حفصة أم المؤمنين.

المبحث الثالث: عصر ذي النورين (النسخ والتوحيد العالمي وعبقرية الرسم)

قصة الخلاف ودواعي النسخ

مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتفرق الصحابة في الأمصار يعلمون الناس القرآن، ظهرت "لهجات" متنوعة في الأداء. وفي سنة 25 هـ، وأثناء فتح أذربيجان وأرمينية، اجتمع جيش من أهل العراق وجيش من أهل الشام، فلاحظ الصحابي حذيفة بن اليمان اختلافاً شديداً في قراءة القرآن، حتى وصل الأمر إلى حد المشادة وتكفير بعضهم لبعض.

فزع حذيفة وركب مسرعاً إلى المدينة ودخل على عثمان وقال صرخته الشهيرة: "يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى."

تشكيل لجنة المصحف الإمام

استجاب عثمان فوراً، واستعار "الصحف" الأصلية التي جُمعت في عهد أبي بكر وكانت عند السيدة حفصة، ثم كلف لجنة رباعية برئاسة زيد بن ثابت وعضوية (عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث). وأمرهم بنسخها في مصاحف موحدة، ووضع قاعدته الذهبية: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم."

عبقرية "الرسم العثماني" المجرّد

لم يكن المصحف العثماني الذي أرسل إلى الأمصار مجرد نسخة ورقية، بل كان تصميمياً علمياً معجزاً. فقد كُتب بالرسم "المجرّد من النقط والتشكيل" لغرض عظيم وهو: استيعاب القراءات المتواترة في رسم واحد وربط الأمة بالنتقي.

● قاعدة "ما يحتمله الرسم"

اعتمدت اللجنة كتابة الكلمات التي ورد فيها أكثر من وجه عن النبي ﷺ بطريقة مرنة تقبل القراءتين دون تغيير في شكل الحروف.

● مثال تطبيقي (فتبينوا / فتثبتوا)

في سورة الحجرات، نزل الوحي بلفظين وكلاهما صحيح. كُتبت في المصحف العثماني هكذا: (فتبينوا) بدون أي نقط فوق أو تحت الحروف.

○ الاحتمال الأول: بوضع النقط (ت، ب، ي، ن) تصيح "فَتَّبِينُوا" وهي قراءة الجمهور ومنهم عاصم.

- الاحتمال الثاني: بوضع النقط (ت، ث، ب، ت) تصبح "فَتَنَّبَتُوا" وهي قراءة حمزة والكسائي وهكذا استطاع "الرسم العثماني" أن يجمع قراءتين مختلفتين في كلمة واحدة، مما حافظ على النص الإلهي بكل وجوهه.

● أمثلة أخرى لاستيعاب القراءات

- {نُنشَرُها} و {نُنشِرُها}: كُتِبَت (ننشرها) بدون نقط، فاحتملت قراءة الزاي (الرفع والتحريك) وقراءة الراء (الإحياء والنشور).
- {مَلِك} و {مَالِك}: كُتِبَت (ملك) بدون ألف، لتحتمل قراءة إثبات الألف (مالك) وقراءة حذفها (ملك)، وكلاهما نزل به الوحي.

حسم الموقف وتوحيد الأمة

بعد أن أتمت اللجنة نسخ المصاحف (قيل كانت 5 وقيل 7 مصاحف)، أرسل عثمان نسخة إلى كل مصر (مكة، الشام، البصرة، الكوفة، وأبقي واحدة في المدينة)، وأرسل مع كل مصحف "مقرناً" ضابطاً للنص. ثم أمر بحرق ما سوى ذلك من المصاحف الفردية، ليقطع دابر الفتنة ويوحد الأمة على نص واحد مقدس لا يقبل الزيادة أو النقصان.

المبحث الرابع: تطور الضبط (النقط والتشكيل)

مع دخول الأعاجم في الإسلام، بدأ "اللحن" (الخطأ في الإعراب) يظهر، فمر المصحف بثلاث مراحل:

نقط الإعراب (أبو الأسود الدؤلي)

يُلقب بـ "ملك النحو"، والسبب في وضعه للنقاط كان غيراً على القرآن الكريم.

سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ الآية (3) من سورة التوبة: "أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ" قرأ الرجل كلمة (ورَسُولُهُ) بالجر (ورَسُولِهِ)، مما غير المعنى تماماً من "أن الله ورسوله بريئان من المشركين" إلى معنى باطل يوهم بأن الله بريء من الرسول (حاشا لله). فزع أبو الأسود وذهب لزياد بن أبيه (والي البصرة) وقال له: "أجبنني إلى ما سألت من رسم النحو."

استأجر كاتباً وقال له: "إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه، وإذا ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف (أمامه)، وإذا كسرت فانقط نقطة تحت الحرف". فكانت هذه نَقط الإعراب التي تحولت لاحقاً لفتحة وضمة وكسرة.

نقط الإعجام

في عهد عبد الملك بن مروان، كلف الحجاج بن يوسف (نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر) بتمييز الحروف المتشابهة (ب، ت، ث، ج، ح، خ) بالنقاط السوداء.

التشكيل الحديث (الخليل بن أحمد الفراهيدي)

هو من وضع الحركات بشكلها الحالي (رأس صاد صغيرة للشدة، واو صغيرة للضمة، إلخ) بدلاً من نقاط الدؤلي الملونة.

المبحث الخامس: الأحزاب و الأرباع و فصل الآيات

تقسيم القرآن الكريم إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، ووضع علامات للفصل بين الآيات، لم يكن موجوداً بصورته الحالية في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الصحابة الأول، بل كان "تحزيراً" (بالحزر والتقدير) تطور تاريخياً لتسهيل الختم والمراجعة.

تحزيب الصحابة (التحزيب بالسور)

في البداية، كان الصحابة يحزبون القرآن بالسور لا بعدد الصفحات أو الكلمات فكانوا يختتمون القرآن غالباً في سبعة أيام، وكان تقسيمهم كالتالي (حديث أوس بن حذيفة):

- اليوم الأول 3: سور (البقرة، آل عمران، النساء).
- اليوم الثاني 5: سور.
- اليوم الثالث 7: سور.
- اليوم الرابع 9: سور.
- اليوم الخامس 11: سورة.
- اليوم السادس 13: سورة.
- اليوم السابع: "المفصل" (من سورة ق إلى الناس).

وكان هذا التقسيم كان يحافظ على وحدة السورة، فلا ينتهي الحزب في منتصف القصة.

التقسيم الكمي (الأجزاء والأحزاب)

ظهر التقسيم الذي نراه اليوم (30 جزءاً) في العصر الأموي، وتحديدًا في زمن **الحجاج بن يوسف الثقفي** وذلك لرغبة الناس في تقسيم القرآن بناءً على "كمية الحروف والكلمات" لتسهيل القراءة في شهر رمضان (جزء لكل يوم). فكلف الحجاج قراء البصرة (مثل يحيى بن يعمر) بحصر عدد حروف القرآن وقسمتها على 30، ثم قسمة الجزء إلى حزبين، والحزب إلى أرباع.

وقد عارض بعض العلماء قديماً هذا التقسيم في بدايته (مثل الإمام مالك) لأنه قد يقطع المعنى في منتصف القصة أو الآية، لكنه استقر بين الناس لاحقاً لسهولة تنظيمه.

فصل الآيات (رؤوس الآيات)

تحديد أين تنتهي الآية وأين تبدأ هو توقيفي في أصله (عن النبي ﷺ)، لكن وضع "علامات" مادية في المصحف مر بمراحل:

- **المرحلة الأولى:** كان الصحابة يكرهون وضع أي علامات داخل المصحف (التجريد)، فكان المصحف العثماني خالياً تماماً من الفواصل.
- **المرحلة الثانية:** بدأ وضع "ثلاث نقاط" عند نهاية كل آية.
- **المرحلة الثالثة:** تطورت ليوضع شكل "خمسة" (هـ) عند رأس كل 5 آيات، وكلمة "عشر" (ع) عند رأس كل 10 آيات.
- **المرحلة الأخيرة:** وضع الدوائر المزخرفة وبدخلها رقم الآية، وهو ما نراه في المصاحف المطبوعة اليوم (مثل مصحف المدينة المنورة).

علامات الأجزاء والأحزاب (الهوامش)

العلامات التي نراها في هامش المصحف (جزء، حزب، ربع، سجدة) دخلت في العصور المتأخرة:

- الأرباع: تُقسم الحزب إلى أربعة أجزاء (ربع، نصف، ثلاثة أرباع، حزب).
- الرموز: استُخدمت الخطوط الزخرفية في الهوامش لتبنيه القارئ لمكان الوصول.
- السجدة: وُضعت علامة (سجدة) لتمييز مواضع سجود التلاوة، وهي مبنية على ما ثبت في السنة النبوية من مواضع سجد فيها النبي ﷺ.

الخلاصة إن تقسيم القرآن إلى ثلاثين جزءاً، وتجزئة الجزء إلى حزبين، والحزب إلى أربعة أرباع، هو تقسيم تنظيمي اصطلاحي ظهر بعد عصر الصحابة للتيسير على الحفاظ والمصلين. بينما كان منهج الصحابة هو التحزيب بالسور التامة، حفاظاً على ترابط السياق القرآني. أما علامات رؤوس الآي والسجدة، فقد تطورت من مجرد نقاط بسيطة إلى زخارف وأرقام تخدم جمالية المصحف ودقة القراءة.

المبحث السادس: شجرة القراءات العشر

القراءات ليست اختلافاً في القرآن، بل هي أوجه نطق ثابتة بالسند المتصل للنبي ﷺ تعود لأئمة مشهورين نقلوا القرآن بالسند المتصل إلى النبي ﷺ. الاختلاف بينها ليس في أصل الدين أو العقيدة، بل في:

1. فرش الحروف: مثل (يخدعون) و(يخادعون).
 2. الأصول: مثل المدود، والإمالة (نطق الألف بين الألف والياء)، وتسهيل الهمزات.
- القراء السبعة (الذين جمعهم الإمام الشاطبي) و لكل إمام من هؤلاء "راويان" مشهوران عنه:

الإمام (القارئ)	المدينة / مصر	أشهر الرواة عنه
نافع المدني	المدينة المنورة	قالون - ورش
ابن كثير	مكة المكرمة	البيزي - قنبل
أبو عمرو البصري	البصرة	الدوري - السوسي
ابن عامر الشامي	دمشق	هشام - ابن ذكوان
عاصم الكوفي	الكوفة	حفص - شعبة
حمزة الكوفي	الكوفة	خلف - خلاد
الكساني	الكوفة	أبو الحارث - الدوري

القراءات الثلاث المتممة للعشر (جمعهم الإمام ابن الجزري) وهؤلاء يكملون "القراءات العشر الكبرى" وهي متواترة أيضاً:

- (أبو جعفر المدني): رواية ابن وردان - ابن جمار.
- (يعقوب الحضرمي): رواية رويس - روح.
- (خلف العاشر): رواية إسحاق - إدريس.

خاتمة

إن رحلة المصحف هي رحلة اليقين، فقد حفظ الله كتابه بأن قيّد له رجالاً بذلوا أعمارهم في ضبط حروفه وحركاته، ليبقى القرآن غصاً طرياً كما أنزل، معجزاً في رسمه، محفوظاً في صدره. فالقرآن انتقل "صوتاً" عبر التلقي، و"رسماً" عبر المصاحف العثمانية، و"ضبطاً" عبر مجهودات علماء اللغة.